حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به ـ العدد التاسع ـ شوال ١٤٤٠هـ / حزيران ٢٠١٩م

باب الثعبان - مسجد الكوفة المعظم

٩

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

سفارة مسلم بن عقيل (عليه السلام) بين محنة تأريخ.. ومحنة مؤرخ

العلامة الراحل السيد محمد علي الحلو

مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام) الثقافية في النجف الأشرف

استطاعت المشاريع التاريخية ان تعمل على تكوين العقل الجمعي التاريخي لاكثر القضايا الاسلامية بعد ان فرضت هيمنتها «المقدسة» على حيثيات الواقعة وتوجهات النخبة التي انساقت وراء تبعياتها الفكرية ودواعيها الثقافية، وهي لا تمتلك امكانية التحليل بقدر ما تمتلك اماكانية التغييب للحادثة محل البحث إثر تداعيات توجهات المؤرخين الذين ادخلوا الواقعة التاريخية بين محنة التاريخ ومحنة المؤرخ.

واقصد بمحنة التاريخ تلك الظروف التي دفعت بالتداعيات التاريخية الى خلق الحدث التاريخي وترسيم حدود معالمة ليقدم لنا عرضا تاريخيا معينا.

في حين نقصد بمحنة المؤرخ هي تلك التداعيات التي تأخذ بالمؤرخ في أن يعيش الحدث بكل فصوله ووقائعه التاريخية، وبين خشيته وتحسباته من النظام الحاكم الذي يرفض نقل المشاهدات التاريخية بما لا تنسجم وتوجهاته، وبين طموحاته العقائدية التي لا تتفق وذلك الحدث التاريخي فيبقى المؤرخ اسير هذه التداعيات التي تأخذ به في مسارات تتقاطع مع الواقع التاريخي المعاش.

هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فان الجهد الاعلامي بدأ يشارك في المحنة التاريخية المضخمة بتوجهات السياسة وطموحات الاعلام.

فهناك طرفا نقيض تنشد إليهما الحادثة التاريخية في المعطى الاعلامي، حيث تتفاقم الأزمة بين الدوائر الاعلامية وبين الشاهد، اذ اخذت الواقعة التاريخية تترنّح بين طموحات الاعلام المسيس وبين طموحات المشاهد المغيب، واقصد بتغييب المشاهد هو الغاء حسابات الاعلام لمشاعر المشاهد ورؤيته الحاضرة في العمل الدرامي الذي تبتزه دوائر الانتاج التلفزيوني وقد ابتعد كثيرا عن مراعاة المشاهد والذي هو اليوم ضحية العمل الفني غير المسؤول في عرض الواقعة التاريخية، فهناك خطان اعلاميان متقاطعان لمحاولات تقديم القضية التاريخية على اساس الرؤية العقائدية او القومية بانتهاكات واضحة المعالم.

ففي **الاولى**: وهي الانتهاكات العقائدية، تقدم بعض دوائر الانتاج الاعلامي اعمالها الفنية على اساس الغاء الرؤية التاريخية من اساسها وتاسيس رؤية تاريخية جديدة، ففي مسلسل «الحسن والحسين» سعت هذه الدوائر الاعلامية إلى هدفها الأساس وهو إلغاء مظلومية أهل البيت عليهم السلام من خلال دعوى التصالح بين الأطراف المتقاطعة، فمعاوية وعلي أو يزيد والحسين يعيشان حالة التصالح والتقاء المصالح الإسلامية المشتركة وهما يسعيان إلى خلق روح التسامح بين المسلمين وأنَّ هذه الحروب التي حدثت بينهما كانت لتنافسات مشروعة تقرها الأعراف الإنسانية، وهكذا يلغى وبقرار الاعلام المسيس كل ما كان من مظلومية، تنكيل، تشريد، سفك دماء، تقاتل، تجاوز إلى آخره من مسميات الاعتداء وأبعاده بين الفريقين وأنَّ ما يتخيله الناس من مظلومية أهل البيت هي حالة العقدة الطائفية التي يعيشها الشيعة والتي تتصورها مخيلتهم التاريخية الموضوعة من أجل النيل من الرموز الإسلامية.

فمثلاً لم يقاتل مسلم بن عقيل أصحاب محمد بن الأشعث بل استسلم لهم مقابل الأمان الذي أعطاء له محمد بن الاشعث الذي كان حريصاً جداً على سلامة مسلم بن عقيل وإرجاعه إلى المدينة، وبهذا يغلق ملف مسلم بن عقيل البطولي والشطب على ملاحمه الجهادية بمجرد لقطات إعلامية ساقطة يختارها المسلسل، إلى آخره من مسلسل الكذب والتزوير مقابل إثبات قضية مهمة وهي أن مسلم بن عقيل والإمام الحسين عليهما السلام ما قتله إلا شيعة العراق الذين هم يبكون اليوم عليه كما أنهم بالأمس قتلوه. وهكذا تتضخم عقدة الاجتثاث التاريخي لأكثر مفاصل التضحية التاريخية لتقدم شوهاء خرقاء لا طعم لها ولا رائحة.

هذا جانب اعلامي مهم يحاول قتل الحقيقة التاريخية،

ويقابله جانب اعلامي آخر يساهم وبشكل فعال في تقديم الرؤية التاريخية الصادقة لكنه للاسف الشديد نجد ان النبرة القومية تاخذ بخناق النص التاريخي لتوجهه على اساس مشتهياتها، فحضور بعض الاعمال والغاء الاخر كان متحكما في فصول بعض الاعمال مما يدعو للاسف الشديد ان ينجر الاعلام الصادق خلف السياقات الشخصية والتي تصدر الى العالم بلبوس فئوي غير متوازن، لذا فان الاعمال الفنية الصادقة يجب ان تستمر على طول الطريق دون ان تتعثر بنظراتها الضيقة او تحليلاتها الفردية التي تقصي العمل الفني، فهي مسؤولة امام الله تعالى في تقديم الحقيقة الكاملة للمشاهد دون ان يعتريها حس فئوي او توجّه إقليمي، فالمشاهد البسيط ياخذ هذه القصة ويختزنها في مخيلته ليؤسس عليها توجهاته العقائدية، فاي خطا بعد ذلك أو ذلك في المنهج التاريخي تتحمل مسؤوليته تلك الدوائر الإعلامية التي تعهدت بتقديم الرؤية التاريخية السليمة والتي وثق منها المشاهد البسيط علما ان الوقائع التاريخية لا تخضع إلى الجهة الاعلامية في تصحيح القضية بل ان النص التاريخي اسير الاعمال الفنية الدرامية التي تخضع للتحريف المتعمد احيانا وغير المتعمد في أحايين اخرى. اذن فالقضية التاريخية ممتحنة بين تحليل تاريخي ساذج او عمل اعلامي مبرمج يلتزم نظرة الدوائر الانتاجية. فهكذا هي قضية مسلم بن عقيل حيث تعيش محنة التطرف واقصد منه عدم الموازنة بين الواقع التاريخي وبين الواقع الاجتماعي.

القضية التاريخية بين التطرف والالغاء:

اذن لابد ان نعترف الان ان المشكلة في الاقصاءات التاريخيةالتي يخلقها التطرف حينا والالغاء احيانا اخرى.

فالمؤرخ يجد نفسه محاصرا بين رغبته النفسية وبين الواقعية التحليلية، وكلاهما لا تنسجمان في خط واحد.

فالرغبة النفسية تاخذ به الى مداراة متطلبات الحاكم الذي يعيش في كنفه، فمشكلة المؤرخ هي انعدام الاستقلالية وارتباطه بالنظام الذي يتولى شؤون حياته ومتطلبات معيشته، وكما نعلم ان الانظمة السياسية المتعاقبة لم تنسجم مع اطروحة اهل البيت عليهم السلام فهي في كل الاحيان انظمة معارضة لاهل البيت لا تنفك عن الغائهم او تشويه واقعهم، والمؤرخ هو الاعلامي لنظام يتكئ على الدعاية التي قوامها مسح الحقائق وتشويهها، ولابد للمؤرخ ان يتخذ دوره في ارضاء الحاكم من خلال قلب الحقائق وتزييفها، مما دعا اغلب المؤرخين ان يكونوا مطرقة النظام التي تطرق على القضية التاريخية لانهاكها وتوجيهها بالوجهة التي تنسجم مع رؤية النظام وتوجهاته ومن جهته فان المؤرخ يعيش واقعية القضية التاريخية للبدء بتحليلها فيجد نفسه ماخوذا بتبعات الواقع الذي بتعارض مع التوجهات السلطوية العامة، ومن اجل ان لا يفرط بوجوده ككادر اعلامي سلطوي فانه يغض النظر عن الوقائع التاريخية المتعارضة مع وضعه السياسي او يعمل على محاولة التوجيه والاعتذار التي تاخذ بالقضية التاريخية الى مديات الالغاء.

الاستعراض الاول:

لم تكن مهمة مسلم بن عقيل الكوفية قتالية، بقدر ما هي تعبوية اراد بها ان يشحذ همم الكوفيين، ويستنهض عزائمهم في حين اراد ان يدفع باصرار الاكثر نحو مواصلة الرفض بل والجهاد ضد النظام، فمهمته تعبوية اكثر من كونها قتالية، وهي الاجابة عن تساؤلات تتردد على السنة البعض عن سبب عدم اتخاذ مسلم بن عقيل اجراءات تصفية اجهزة النظام كطرد النعمان بن بشير والي الامويين على الكوفة، في حين ان مهمة مسلم الاصلاحية تتنافى وبدء القوم بالقتال، واثارة الفتنة وهي التهمة في الحقيقة التي اثارها عبيد الله بن زياد ضد مسلم لكن بتردد واضح "... يابن عقيل، أتيت الناس وهم جمع ففرقتهم"، ولم يستطع ابن زياد ان يثبت صحة كلامه هذا بادنى دليل يمتلكه..

لقد كان مسلم داعية اصلاح لم يأت ليستنهض الكوفيين للقتال، وما يؤيد ذلك انه عليه السلام لم يعمل قيادة بديلة تستلم مهام الثورة عند طروء اي حادث.

الاستعراض الثاني:

اننا لم نقطع في استنتاجاتنا بشكل يوجب الجزم والاصرار، بل اننا نحتمل ان الكوفيين كانوا صادقين في دعواهم لنصرة الحسين عليه السلام، وانهم مشروع تضحوي لانجاح برنامجه الاصلاحي الا ان الفاجئات التي حدثت فيما بعد، اربكت هذا التوجه واحالته الى حالة انهزام امام المستجدات الطارئة التي احدثتها سياسة عبيد الله بن زياد المخادعة والمعتمدة على التيار الاموي او التيارات المناصرة له.

الاستعراض الثالث:

ان خطط مسلم بن عقيل الذكية اربكت النظام الاموي في القضاء نهائيا على حركة الامام الحسين عليه السلام وانصاره، فهي عملت على تمتين العلاقة بين الثورة والثوار، وبين القائد وقواعده، واحتفظت بمخزون من فدائيي الثورة القادمة، لذا فان خطة المواجهة التي اعتمدها مسلم بن عقيل مع النظام الاموي لم تشمل قيادات حركته ولا انصاره، امثال حبيب بن مظاهر الاسدي، مسلم بن عوسجة، بريد بن خضير، ابو ثمامة

الصائدي عمروبن خالد، عبدالله بن... الكعبي الى آخره من قائمة المجاهدين الذين انسحبوا من ارض المواجهة-الكوفة- واختفوا في ضواحيها وقراها لحين قدوم الامام الحسين عليه السلام، وبذلك أحبط مسلم بن عقيل خطة التصفية لقواعد الثورة الحسينية التي يعتمدها الامام الحسين في حركته.

الاستعراض الرابع:

عمد ابن زياد الى سياسة الاخذ باسوء الاحتمالات، فقد طارد الكثير من اشراف الكوفة ووجهائها واتبع منهجين من العمل في هذا الشأن:

الاول: سياسة الترغيب:

فقد اشترى ابن زياد ضمائر بعض وجهاء الكوفيين واستمالهم بالمال وهم يومئذ –اي الكوفيون– حاربتهم السلطة الأموية بالفقر والحرمان، فاي عطاء يضعف معه المحتاج خصوصا اولئك الرؤساء الذين يرون رئاستهم بالمال، ووجاهتهم بانفاقه على الاخرين، لذا استطاع ابن زياد تعزيز الوجهاء وشراء ذممهم، وهذا ما خبر به بعض اهل الكوفة الامام الحسين عليه السلام عند لقائه له في الطريق: «وأما أشراف الناس فقد عظمت رشوتهم، وملئت غرائزهم، يستحال ودهم، وتستخلص به نصيحتهم، واما سائر الناس فإن أفئدتهم تهوي إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك[1]. ومن هنا تمكن ابن زياد من السيطرة على الحالة الكوفية ياخذ بعض رؤسائها بالمال والترغيب.

الثاني: سياسة الترهيب:

فقد سجن في السجون بعض المعارضين امثال المختار الثقفي وعبيد الله بن الحراث اللذين ألقي القبض عليهما – كما مر– فضلاً عن كثير من الوجهاء الذين أخفى التاريخ أسماءهم كما أن ابن زياد تحصن في قصره واحتجز كثير من الناس الذين كانوا في القصر لاغراض شتى فامر بغلق الابواب واحتجاز كل من كان في القصر، مما اربك عمل الثوار بقيادة مسلم بن عقيل، حتى امتنع من مواصلة محاصرة القصر وادى به الى الانسحاب بعد ان كان ابن زياد قد ضرب طوقاً بشرياً تحصن به وتترس من خلاله، وهذا أحد عوامل انسحاب مسلم بن عقيل وعدم استمراره في محاصرة القصر.

الاستعراض الخامس:

ان من المؤسف ان يوجه الباحثون اهتمامهم الى عدد الكوفيين وهو العنوان الذي اخذ مساحة واسعة من بحوثهم، في حين اغفلوا غدر الكوفيين المنتسبين للنظام امثال محمد بن الاشعث الذي افتعل مكيدة "الامان الغادر" – كما قدمنا – ولما اطمأنَّ مسلم لهذا الامان – بعد ان اخذته الجراحات ونزف الدماء – ظهر غدر هذا الامان وعدم صحته، هذا على رواية، في حين ان الرواية الاخرى تشير الى ان التيار الاموي – الكوفي عمل لمسلم بن عقيل حفيرة وغطيت بالتراب والحشائش فوقع فيها[2].

الاستعراض السادس:

كانت مهام مسلم بن عقيل تثبيت المبادئ والقيم الاسلامية الاصيلة التي صودرت من محاصرة النظام لاكثر مفاصل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، واستبدلت الكثير من هذه القيم الى قيم ممسوخة غير اصلية، وكان على مسلم بن عقيل تثبيت هذه القيم واظهارها بما ينسجم والاطروحة الاسلامية، لذا فهو لم يقدم على الفتك بعبيدالله بن زياد مع سنوح الفرصة بذلك، فضلا عن اقتناعه في التصرف باموال الكوفيين المودعة في بيت المال، بل استدان لتمشية ضروراته وبذلك اظهر ترفعه عن زجه باية اغراض بعيدة عن اهدافه او تسجل لغير صالح حركته الاصلاحية.

الاستعراض السابع:

كان اختيار الإمام الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل لهذه المهمة اختيارا حكيماً، وقد توفرت لمسلم دواعي إنجاح هذه المهمة والتعاطي معها على أحسن وجه، كما ان تعريف الإمام الحسين لشخصية مسلم بن عقيل كان دقيقا فقد توفرت لمسلم أسباب القيادة الناجحة بكل تفاصيلها فقد كان ملما باصول الحرب، مطلعا على تشعبات المجتمع الكوفي، يحمل في قناعاته صحة خيارات الامام الحسين الاصلاحية، موقنا بضرورة التغيير وبقيادة الامام المعصوم، فضلا عن شجاعته وعلمه وفقاهته وورعه وشدة احتياطاته في اتخاذ القرارات الحاسمة، وكل ذلك ساعد في انجاح مهمة مسلم بغض النظر عن نهايته المفجعة.

الاستعراض الثامن:

مهد مسلم بن عقيل في مهمته هذه لقدوم الامام الحسين عليه السلام ارضية مهمة لدى الكوفيين فهو لم يدخل في صدامات عسكرية مع النظام، بل قدم الرؤية الكاملة لنهضة الامام الحسين عليه السلام، والموقف الكامل من بيعة يزيد، فالكوفة اليوم وهي ترفض بيعة يزيد، بحاجة الى ترشيد موقفها، وتسديد رؤيتها حيال النظام، فهي المدينة الوحيدة من

(١) حياة الشهيد الخالد مسلم بن عقيل عليه السلام للشيخ باقر شريف القريشي : ١٤١.

(٢) انظر حياة الشهيد الخالد مسلم بن عقيل عليه السلام للشيخ باقر القرشي: ١٦٨ فقد نقل خير..... في مقتله المخطوط.

بين البلدان الاسلامية التي اعلنت رفضها لبيعة يزيد – وان كان في البلدان الاسلامية الاخرى رفض لهذه البيعة لكنه على مستوى الامنيات ولم يصل الى المستوى العملي – في حين ان الكوفيين قد اعلنوا عن رفضهم لهذه البيعة وهم بحاجة الان الى تقنين هذا الرفض، وترشيد هذه المعارضة فكان مسلم بن عقيل جديرا بالأخذ بأيدي الكوفيين والعمل على تنظير هذه الحركة الرافضة المتمردة.

الاستعراض التاسع:

اعتمد النظام الاموي على اسلوب الدعايات المضادة التي اوهنت من عزائم الكوفيين، فضلا عن حالة التواكل التي حدثت لبعضهم، فقد شاركت المراة بدور سلبي اربك عملية المقاومة، فان الدعايات التي بثها ابن زياد كون الجيش الشامي على الحدود الكوفية وسينزل اقصى العقوبات في كل من شارك في الثورة، اخذت هذه القضية من النفسية الكوفية ماخذها خصوصا النساء، فان المراة اكثر استجابة لاية دعاية تطلق، بل هي اسرع الى تصديقها وترتيب الاثار عليها، وقد خشيت اكثر النساء على مصير ازواجهن وابنائهن الذين اشتركوا في الثورة، فارهبن الرجال في المشاركة بهذه الثورة "مجهولة المصير" – كما يتصورن ذلك – لذا فاخذن يخذلن الرجال ويقربن صورة الفاجعة التي تنتظرهن ان حدث بالرجال حدث، فالمرأة تستطيع ان تدفع بالاحداث باتجاهها الايجابي او بوجهتها السلبية، فالنساء يهيمن بعواطفهن على اكثر قرارات الرجال، ودوافعهم لتحقيق اي قضية ما، ويتعلق ذلك على اساس القناعات التي تحملها المراة، كما حدث لعمرو بن جنادة حين دفعته امه الى القتال وقال حينما منعه الامام الحسين عليه السلام وقال: هذا غلام قتل ابوه في الحملة الاولى ولعل امه تكره ذلك، قال الغلام: ان أمي امرتني فاذن له[1]. وما حدث لزهير بن القين حينما «توقف عن الاجابة غير ان امراته دلهم بنت عمرو حثته على المسير إليه وسماع كلامه فمشى زهير الى الحسين.. »[2]. الى غير ذلك من المواقف التي كان للمرأة أثر إيجابيٌ في قرارات الرجال الايجابية، في حين نجد ان المراة في الموقف الكوفي هذا قد شاركت في تخذيل الرجل عن النصرة والاستمرار في المعركة، فكانت لاجابة الرجال بشكلها السلبي أثرها في تلكؤ الثورة واجهاضها، وهذا يحدث في كل مجتمع انساني.

الاستعراض العاشر:

دخلت الكوفة في مواجهات مثيرة مع انظمة الحكم – خصوصا الاموي والعباسي – وكان لكل نظام اتجاهه في تقرير الاحداث التاريخية، وترسيم رؤية معينة لكل جهة تختلف على اساس ولاءاتها السياسية، فكان للكوفة حظها السيئ مع مؤرخي النظام الذين شاركوا في تعزيز رؤية الخذلان والنكوص الكوفية التي ساهمت في احداث تصور سلبي ونزعة قبلية لدى الناس في طليعتهم الباحثين الذين ورثوا هذه النزعة بشكلها السلبي.

من هنا فاننا ندعو الى.. تعزيز "الوسطية التاريخية" في رسم الاحداث الكوفية، وعدم التطرف في الحكم على الاحداث.

الاستعراض الحادي عشر:

ان كل ما قدمناه لا يرقى الى مرحلة تبرير الموقف الكوفي من الاحداث، فان المواجهات التي حصلت مع ابن زياد كانت باكورة الثورة المسلمة التي دعا اليها الكوفيون لنصرة الامام الحسين (عليه السلام) وتمنوا ان تكون حركتهم هذه تحت لواء معصوم ياخذهم الى تحقيق اهدافهم والوصول الى غاياتهم، وهم بهذا لابد ان يوطنوا انفسهم لاحتمال المتغيرات السياسية اثناء الحركة، ولابد ان يتوقعوا لكل طارئ محسوب او غير محسوب، فاي تغيير يحصل لا يؤثر على مبدأ موقفهم، في حين نجد أن الموقف الكوفي أخذ يتجه باتجاه النكوص والتخاذل، وهم وان طالتهم الاجراءات المتشددة وغير قادرين على إعادة ترتيبهم وتعبئتهم مرة اخرى، الا ان ذلك لا يعذرهم من التواني عن إيقاف الانتهاكات التي طالت جسد الشهيد مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وكان المفروض الإقدام على فك الحصار الذي ضرب على هانئ عند حبسه في قصر الإمارة، وعلى مسلم بن عقيل عند ملاحقته من قبل أزلام النظام، إلى آخره من الفرص التي يمكن استغلالها لتغيير مسارات الأحداث باتجاه النصرة أو أخذ الثأر على أقل تقدير.

❖ ❖ ❖

(١) مقتل الحسين للمقرم، ٣٠٥.

(٢) نفس المصدر: ٢٠٦.